

الخلط بين الضحية والجلاد في الدراما

جوناه غولديبيرغ

مركز اميريكان انتربرايز

7 أبريل 2010

The Monster-Victim Mix-Up

By Jonah Goldberg

American Enterprise Institute (AEI)

ترجمة: علي الحارس

- باحث في مركز اميريكان انتربرايز (AEI).
- من الأعلام والوجوه الإعلامية المعروفة في الإعلام الأمريكي.
- من كتاب (الأعمدة) في صحيفة (لوس انجلس تايمز).

جوناه غولديبيرغ

أتيح لي أن أشاهد الفيلم الكارتوني (كيف تدرّب تينيك (How to Train Your Dragon) مرتين. إذ يحظى هذا الفيلم بمحبة ابنتي التي يذكّرها التنين الأساسي بقطتها. كما إنني أعتقد بأن الفيلم عظيم أيضا. (ملاحظة: تحتوي المقالة على معلومات تفسد متعة مشاهدة الفيلم لمن لم يشاهده من قبل).

صحيح أنني لم أعد شابا. لكنني لا أعترض كثيرا على ما أوردته مجلة (انترتينمنت ويكلي (Entertainment Weekly) حين وصفت الفيلم بأنه «عينة من قصص عصر الرعب حول الجهل الذي يزدهر في ظل الشوفينية». في إشارة إلى ما يرد في الفيلم من أن الفايكينغ تمت تربيتهم طيلة سبعة أجيال على قتل التنين كعادة حياتية متأصلة. وبحسب قولهم في الفيلم: «هذا ما دأبنا على فعله».

وبخلاف شعبه. يكتشف بطل القصة (هيكب (Hiccup). وهو مراهق ذكي منبوذ. أن التنين في حقيقته ميال إلى أن يكون رفيقا محبوبا لين العريكة. وذلك لو استطاع الفايكينغ الآخرون أن يتغلبوا على إفراطهم في الجهل والأحكام المسبقة ويعطوا فرصة للتينين كي يثبت العكس. وتتمحور أحداث الفيلم جميعها حول إساءة الفهم. إلى أن ينتهي بتعايش التنينات والفايكينغ في محبة متبادلة.

الخلط بين الضحية والجلاذ في الدراما

إن الشكوى الدائمة التي أحملها تجاه هذا النوع من الأفلام، عدا أنها أصبحت مكرورة مبتذلة، تتمثل في أنها تعلم الأطفال بأنه لا وجود لشيء اسمه وحوش؛ وهذا لا يعني أنني أحب إخبار الأطفال بأن هنالك ما يظهر فجأة أثناء الليل أو بوجود وحوش في خزانة الملابس، وبالأخص عندما يؤدي ذلك إلى أن يقضي طفلي المرعوب ليلته معي في السرير. لكن الوحوش خدمت غرضا مهما في السابق، ومن يستقصي أصل الكلمة (Monsters) في اللغتين اللاتينية والفرنسية يجد أنها تعني خطرا شديدا أو نذير سوء، حيث كانت قصص الوحوش تعلمنا في السابق أن الشر موجود فعلا وأن علينا الابتعاد عن الافتراض بأن كافة الدوافع خيرة ولطيفة.

لا شك في أننا نعلم الأطفال في يومنا هذا أن يصيحوا طالبين النجدة إن اقترب أحد الغرباء منهم، ولكنك لن تجد درسا حول ذلك في الكتب والأفلام الكارتونية التي تحظى بشعبية لدى الأطفال، وذلك على الرغم من أن بعض هؤلاء «الغرباء» مخيف وخطر للغاية، وليس مجرد شخص تعرض لإساءة الفهم. ومن هنا، لا يمكن أن يعد قرار ملء مسلسل (افتح يا سمسم) بالوحوش «الحنونة» من الأمور الهامشية، حتى أن (كعكي) المتذمر هو في الواقع شخصية رقيقة، وقبل بضعة أعوام أعادوا كتابة حوارات (كعكي)، فأصبح يقول بأن الكعك ما هو إلا «طعامه في بعض الأحيان»، مما حدا بالبعض، ومنهم الفنان الفكاهي ستيفن كولبيرت (Stephen Colbert)، بأن يتساءل حول ما إذا كان كعكي قد «تخلى عن أجندة مناصرة الكعك».

ينبغي أن أنبه هنا إلى أنني لا أحن إلى الماضي إلى درجة أفضل فيها العالم الذي أنتج قصص غريم الخيالية (Grimm Fairy Tales) التراثية على عالم أنتج فيلم الرسوم المتحركة (شركة الوحوش Monsters, Inc)؛ ولكن التطور لم يأت دون تعثرات؛ فاللوم لم يعد أمرا متأسلا في الشخصية، وإنما أثرا جانبيا لإساءة فهم الآخرين لها، ودفاعا مغتفرا عن النفس تمارسه الضحية. وعندما قامت هوليوود بتحويل قصة (كيف سرق غرينتش عيد الميلاد How the Grinch Stole Christmas) إلى فيلم من بطولة جيم كاري (Jim Carrey)،

الخلط بين الضحية والجلاذ في الدراما

تم التخلص من عبارة «أنت شخص لئيم يا سيد غرينتش». وهي عبارة تتكرر بكثرة في القصة الأصلية. وبدلاً من عبارات من أمثال: «الأرضة في ابتسامته» و«الثوم في روحه». تبين أن غرينتش ضحية لانغلاق عقول أعدائه. ولم يكن تحوله إلى بطل لعيد الميلاد انقلاباً أقوى من قصة انتصاره الأخلاقي على غطرسة أعدائه.

صحيح أن التفسيرات النفسانية لظاهرة وجود الأشرار لها قيمتها ومكانتها. لكن ما يزعجني هو الميل إلى التفسير التبريري للشخص المحض بأنه مجرد نتيجة لإساءة الفهم: فنحن نتعاطف جميعاً مع توني سوبرانو (Tony Soprano) على الرغم من أنه قاتل متوحش. كما تبين في النهاية أن هانيبال ليكتر (Hannibal Lecter) من ضحايا النازية؛ وفي عالم الواقع: كم من المرات والمرات سمعنا عن التفسير التبريري لدوافع الإرهابيين باعتبارها ردود فعل معقولة. ومؤسفة. تصدر عن ضحايا؟ وفي الوقت ذاته. يصب الآخرون اللعنات على من يعترض مجرد الاعتراض على زواج المثليين أو إصلاحات نظام الرعاية الصحية ويعتبرونه خارج نطاق الإنسانية. ودون ذكر أية مصطلحات من الخطاب السياسي. يمكن القول بثقة أننا نتفق جميعاً على وجود ميل لاعتبار الآخر (غير الشرير) ليس مخطئاً فحسب. وإنما متعمداً في تبنيه لدوافع شريرة. وبالعودة إلى مثال هوليوود فإن أقل الشخصيات تعاطفاً ليسوا في العادة أشراراً حقيقيين وإنما مجرد معتنقين «لآراء خاصة» يرفضون التخلي عن إساءة الفهم بسبب معاييرهم الخاصة بهم.

أعود إلى فيلم (كيف تدرّب تينك). فأقترح نهاية أخرى قد لا تثير إعجاب ابنتي كما أعجبتها النهاية المعتمدة. ولكنها نهاية أكثر واقعية. وتقضي بأن يقوم الفايكينغ بتجنيد حيواناتهم الأليفة الجديدة التي تنفث النار وتشن حرباً شاملة لغزو أوروبا وتدمير كل ما في طريقهم وإجبار الشعوب الأخرى على الدخول في طاعتهم. وذلك لأن هذا ما «دأب» الفايكينغ على فعله حقاً.